University of Thi-Qar Journal of Humanties Science
Website: jedh.utq.edu.iq Email: utjedh@utq.edu.iq

الإقناع الثقافي في خطب الخلفاء الفاطميين (توظيف القرآن الكريم اختياراً)

Cultural persuasion in the sermons of the Fatimid caliphs (employing the Noble Qur'an as an option)

أ. د. عباس جخيور سدخان عهد طاهر عبيد
Dr. Abbas Ch. Sadkhan
Ahed Taher Obaid
drabbasc@gmail.com
douhhft@gmail.com

Abstrac

Speeches are among the most prominent persuasive methods of all ages. As it opens the door for the preacher to deliver what he intends to deliver to the recipient, and in order to fulfill his mission, he must employ multiple persuasive means, and therefore (the Noble Qur'an) is one of the most prominent of these employments. When it contains within its folds persuasive methods of eloquent effect and a respectable sanctity for all Muslims, all these reasons have made preachers employ it in their sermons throughout the ages, from the noble Messenger to the Fatimid caliphs and to this day.

Key word Opening words: The Quran, Speeches, The Fatimid Caliphs, Persuasion, Fatimid era.

الكلمات الافتتاحية : القرآن الكريم, الخطب, الخلفاء الفاطميين, الإقناع, العصر الفاطمي

الملخص:

تُعد الخطب من أبرز الوسائل الإقناعية على مر العصور؛ كونها تفسح المجال للخطيب ليوصل ما يروم ايصاله إلى المتلقي, وليؤدي مهمته هذه عليه توظيف وسائل إقناعية متعددة ولذا عد (القرآن الكريم) من أبرز هذه التوظيفات؛ لما يحوي بين طياته وسائل إقناعية ذات اثر بليغ ومكانة قدسية محترمة عند جميع المسلمين كل هذه الأسباب جعلت الخطباء يوظفونه في خطبهم على مر العصور ابتداءً من الرسول الكريم(صلى الله عليه واله وسلم) حتى الخلفاء الفاطميين وإلى يومنا هذا.

المقدمة

تعدُّ الخطب من أبرز الاجناس النثرية التي لازمت الإنسان ورافقته منذ عصر ما قبل الاسلام حتى عصرنا هذا, بعدها وسيلة إقناعية مهمة وهي" نوع من الكلام المنثور له شأنه في التأثير يلقى على جمع من الناس لإقناعهم بما فيه الخير لعامتهم في كافة أحوالهم"[1] , فهي من مستودعات سر البلاغة, ومجامع الحكم, بها تفاخرت العرب في مشاهدهم, ونطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم, وبها يتميز الكلام, وبها يخاطب الخاص والعام, وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة, وعلى طريق الخطباء سارت الكتاب[2].

وقد نالت الخطابة مكاناً واسعاً في ادبنا العربي على مر عصوره؛ لأنها تفسح المجال للخطيب ليعبر عما يجول بخاطره من مكنونات داخلية, إذ لم يقتصر دورها على التعبير, والافصاح بل كانت مهمتها الأساس التأثير, والإقناع , وإثارة السامعين وجذب انتباههم.

والخطب عند العرب لم تكن خطباً ذات افكارٍ ومعانٍ متماسكة بل كانت اقوالاً وجيزة, وعبارات مسجوعة؛ لأن ظروف معيشتهم وبيئتهم تقتضي ذلك فقد كانت تقام خطبهم عند الضرورة المُلحة وكان الخطيب يعتمد على الإرتجال الفطري أي أنَّه لم ينظم قوله وينقحه ويعيُد به النظر ولم يتدرب على إلقائه بل ينثل الكلام انثيالاً دون تسلسل وترتيب[3]. لذا

فأنهم "وجدوا في الخطابة عوناً لهم على الحضَّ والتحذير, والترغيب, والتنفير, أو المفاخرة, أو المناظرة"[4].

وتدل المخطوطات المقيدة في كتب التراث الادبي على أن منزلة الخطيب في عصر ما قبل الاسلام قد ارتقت وبلغت منزلة الشاعر آنذاك ودليلنا في ذلك قول (ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) "كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب, وهم إليه أحوج لردَّه مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم فلما كثر الشعر والشعراء صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر"[5], ولم تقل منزلة الخطابة في العصور التالية بل قد عدت في (العصر الاسلامي) على وجه الخصوص نوع من أنواع السلاح ضد الكفار, ومن هنا يتبلور لنا دورها في نشر وتثبيت اركان وتعاليم الدين الحنيف[6], إذ "أصبحت أداة الدعوة واللسان الناطق بالرسالة تشرح للناس أسرارها وتبين المثل والقيم التي أتت بها"[7].

وكما هو معلوم من أن الرسول الكريم محمد(ﷺ) كان " أخطبُ العرب قاطبة"[8] ومن هنا يتضح لنا دورها التوجيهي والتوعوي الذي يصدر على لسانه الكريم ولاسيما في خطب الاعياد والمناسبات والتي كثيراً ما كانت موجهة إلى صقل عقليات المجتمع البسيط آنذاك وبث تعاليم (القرآن الكريم) وكل هذا يندرج تحت نوع جديد من الخطب ولدت في هذا العصر تعرف (بالخطابة الدينية) ومن هنا نمت وتطورت حتى استوت وسيلة مهمة من وسائل النشر والتوجيه[9].

لقد انمازت خطب ذلك العصر بتميزها من حيث الأسلوب إذ نجدها خطباً غزيرةً بمواضيعها مُعتلية بديباجتها فنجد أن" الاحداث المرافقة لظهور الدين الجديد أثرها الفاعل في تنوع موضوعات الخطابة وتأثر أسلوبها بالظواهر البلاغية التي أشرقت في الديباجة مرتفعة بالأسلوب الفني في الأدب العربي إلى ذروة الاعجاز"[10].

أما في العصر الأموي فقد شهدت (الخطب) تطوراً واسعاً بفعل احداث ذلك العصر ومعطياته القائمة على التناحر السياسي, والتفكك المجتمعي, وشيوع الفتن والعصبيات القبلية, والاحزاب السياسية وهنا يبرز لنا دور الخطابة؛ بعدها أداة نقل وبث ولسان ناطق, قادرة بفعل دورها في التعبير عن مطالب الحياة المختلفة[11].

كما نالت الخطابة في العصر العباسي, حظها الأوفر من التطور والرقي والازدهار إذ اتخذها العباسيون خير وسيلة من وسائل اثبات احقيتهم في الحكم على خصومهم السياسيين

(الامويين و والعلويين) خاصة فشاعت أثر ذلك الخطب السياسية فمضوا يؤكدون في خطاباتهم أنهم اولى بالخلافة وهم اصحاب هذا الحق[12]. إلى جانب هذا فقد برزت طائفة من الخطباء البارعين في ذلك العصر من الذين امتازوا ببراعة القول والفصاحة, والقدرة على الإقناع والتأثير واستمالة القلوب فضلا عن عنايتهم بشكل الخطب ومضمونها وانتقاهم الالفاظ المؤثرة[13].

ومن مميزات الخطابة في هذا العصر: احتفاظها إلى حد كبير بخصائص الخطابة في العصر الاموي "جارية على ما كانت تجري عليه اساليب الخطابة آنذاك من قوة ومتانة وتماسك وبعد عن الفضول والحشو والمبالغة وتكلف ما لا غناء فيه"[14] .

أما في (الدولة الفاطمية) فقد نالت مكانة مرموقة من بين الفنون النثرية التي شاعت في تلك الأرجاء, اذ كانت أداة ومنبراً قوياً إلتجأ إليها الخلفاء والكتاب الفاطميين من أجل توطيد أركان دولتهم ومذهبهم الفاطمي ولإثبات احقيتهم في الإمامة, وكان هذا الفن من أكثر الفنون النثرية التي تأثرت واستجابت للتغييرات التي طرأت على المجتمع وكانت دواعيها متعلقة بهذه التغييرات بمختلف جوانبها السياسية, والاجتماعية, والدينية[15] . وقد كان نشاطها وتأثيرها في هذا العصر في أجواء المساجد الاسلامية التي كانت مقراً للعلماء والأدباء وخاصة علماء التفسير والحديث بعدها مؤسسة تعليمية تقام بها حلقات يتزود بها أهل العلم والمعرفة وقد برز نشاطها على الصعيدين الديني, والسياسي ونقل اصول ومذاهب معتقداتهم الدينية, وإرساء مبادئهم المذهبية في نفوس المسلمين[16].

وقد كانت الخطابة مزيجاً من الدين والسياسة وقد أولى الفاطميون أسوة بحكام الدويلات الاسلامية السابقة لدولتهم أو المجايلة لها الخطابة عنايةً خاصة, لانهم لمسوا أهمية المنبر الخطابي وتأثيره في نفوس المتلقين علاوة على دوره في إقناع الناس بشرعية حكمهم وأوليتهم فيه, ودحض حجج المنافسين ورد أباطيلهم ودعواتهم[17].

إذ كانت الخطابة من أهم اساليب الدعاية الشيعية المصرية, فقد كان الخليفة الفاطمي, أو قاضي القضاة, أو داعي الدعاة يلقي خطبه كخطب الجمعة, أو خطب الاعياد وبذلك جاذباً أسماع المتلقين وعقولهم؛ لأنه كان يتمتع بخصال كثيرة لا يملكها غيره من الخطباء المعاصرين له, ومن هذه الخصال انتمائه إلى بيت الرسول محمد (ﷺ) (العترة النبوية

الطاهرة) وامتلاكه كمٍ من البلاغة والفصاحة ومعرفته اسرار الآيات والاحاديث القدسية ما لا يعرفه غيره[18] .

إذ تعُد الخطابة "مظهراً من مظاهر الرقيّ الإنساني وعلامة من علامات تطور المجتمعات وسمَّو فكرها, ولهذا عُنيَ بها كل شعب واهتمت بها كل الأمم في كل زمان ومكان, واتخذوها أداة لتوجيه الجماعات, وإصلاح المجتمعات"[19].

وبقراءة خطب هذا العصر –العصر الفاطمي– قراءة تعالقية, نجد توظيف (القرآن الكريم) كوسيلة اقناعية في خطبهم قد احتل مرتبة متقدمة بين بقية الوسائل كونه ذا أثر بليغ لما له من مكانة وقدسية محترمة عند جميع المسلمين, وإعجاز لفظي مؤثر في نفوس متلقيه إذ اخذ (الخطباء/ الخلفاء) يوشحون خطبهم بالآيات القرآنية؛ لتظهر بصورة متكاملة ومحققة غايتها وتكون قادرة على (الإقناع, والتأثير, والاتعاظ , والتدبير, وتحسين الكلام) خاصة إن النظرة إلى (القرآن) هي نظرة تدور حول القداسة والتمجيد لما إنماز به من عظمة النظم وروعة البيان فهو بحق وسيلة إقناعية بعده احسن الذكر وأفضل الكلام فـ"القرآن الكريم مفخرة العرب في لغته, اذ لم يُتح لأمة من الأمم كتاب مثله لا ديني ولا دنيوي من حيث البلاغة والتأثير في النفوس والقلوب"[20].

القرآن الكريم كان وما يزال المعين الثر الذي يقتبس منه الشعراء والادباء ألفاظهم وصورهم ومعانيهم متمثلين بآياته الكريمة في مخاطباتهم وأشعارهم, لكي يصلوا إلى الغاية الدلالية والبنائية المنشودة والمحققة[21].

خطبة المنصور بالله الفاطمي:

ومن الشواهد على توظيف الخلفاء الفاطميين ل(القرآن الكريم) كوسيلةٌ إقناعية هو ما جاء في خطبة المنصور بالله[*] في عيد الأضحى: بسم الله الرحمن الرحيم

"الحمد لله المتوحد بالربوبية, المتفرد بالوحدانية, المتعزّز بالقدرة والبقاء, ... أوصيكم عباد الله بما اوصيت به نفسي قبلكم من تقوى الله , ومراقبته, والعمل بما يرضيه, ويقربنا وإياكم إليه, ففي تقواه رضاه, وبرضاه الفوز بالجنة والنجاة من النار, ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾, ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ "[22]

نلحظ في هذه الخطبة ان الخليفة الفاطمي يوظف آيتان تؤديان المعنى نفسه إذ اتخذهما وسيلة إقناعية من أجل التأثير في رعيته بعدما أوصاهم بتقوى الله ووجوب طاعته.

أنَّ وسائل الإقناع التي عضد الخليفة بها خطبته مصدرها الأساس(القرآن الكريم) وقد منح النص معطيات ومعان أكثر فهماً, وإقناعاً, وتأثيراً عما أراد الخليفة تبليغه إلى افراد رعيته وتأكيد المعاني السامية التي جاء بها في نفوسهم, واضف إلى ذلك فأن بنية الخطبة تصبح متماسكة, ورصينة, بعيدة عن التفكك, وتؤدي غايتها بالشكل المطلوب عندما تعضد بوسائل إقناع لها تأثير واستجابة من قبل الجمهور المتلقي ولتكون حجةً ودليلاً للخليفة على صحة وصدق ما ينقله, وقد جسد لنا بتوظيفه هذا, الغاية من تقوى الله والتقرب إليه فهو هنا يقدم دستور حياة المسلمين ويتخذ منه وسيلة إقناعية تسهم في استثارة اجابة المتلقي فإن نتيجة التقوى وطاعة الله عز وجل هو الفوز العظيم وجعل منه عنصراً مشاركاً في استنتاج دلالة الآية القرآنية .

ولم يكتف الخليفة المنصور في خطبته بشاهد قرآني واحد بل زاد في عدد توظيفاته فاستعان بأية اخرى في قوله : "فتقربوا إلى الله تعالى فيه بما أمركم به, وافضل ما أنتم مقربوه إناث الإبل, وإناث البقر, وفحول الضأن, واجتنبوا المريض من الحيوان ومعايب العيون والآذان, بذلك جرت سنة نبيكم, (ﷺ) وعلى اله الأئمة من ولده الأطهار الأبرار عليهم أفضل السلام ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ "[23].

فأننا نرى الخليفة الفاطمي في هذا النص يؤكد على أن الأضحية هي هدية العبد للخالق, وأن تضمين الخليفة لوسيلة الإقناع تعانق مع سياق خطبته فأغنى بذلك الفكرة التي يدور حولها النص, وأن استدعاءه لهذه الوسيلة الإقناعية من أجل افهامهم, وترغيبهم, وحثهم على التقرب والاخلاص في النوايا لله سبحانه وتعالى, اي أن نحرهم لهذه الذبائح تكون خالصة والقصد منها التقرب ومرضاة الله وحده لا شريك له, وليس ان تذبحوها من أجل التفاخر, أو الرياء, أو سمعةً وتشهيراً فلن تقبل منكم اذ لم تقترن بالإخلاص والصدق وتقوى الله عز وجل .

خطبة القائم بأمر الله:

ومن الاستشهاد بوسائل الإقناع (القرآن الكريم) ما وردَّ في خطبة الأمام القائم بأمر الله(*), وأمر المروزي(*) قاضيه بالمهدية ان يقرأها عليهم, يقول فيها بعد حمد الله تعالى والثناء عليه والصلاة على النبي محمد ,صلى الله عليه وعلى اله الطاهرين.

"أيها الناس. إن هذا اللعين النكاريّ قد استشرى شرُّه, واسْتْوبَا مرتعهُ, وحملته الأماني الغَّرارة, والنفس التي هي بالسوء أمارة, ..., ليعثر في فضل خطامه فلعنه الله لعناً وبيلاً, وأخزاه خزياً طويلاً, وصيَّره إلى نار تلظى , ﴿لاَ يَصْلاها إلاَّ الأَشْقَى الذي كذب وتولى﴾"[24]

.

يتضح في هذه الخطبة ان الخليفة الفاطمي كان في أشد حالات الغضب النفسي نتيجة للظرف الصعب الذي كان يمر به اثناء حصار المهدية, إذ يحشد كل طاقاته الجهادية والتحريضية من أجل استنهاض, واستثارة الهمم والاحاسيس عند جنوده, وتحريك كوامن الحمية والشجاعة فيما بينهم, ودفعهم للمشاركة في الجهاد في سبيل الله ونيل منازل الشرف والكرامة, وبث روح العزيمة, والحماسة في نفوسهم, وهذا يدفعهم إلى مقاتلة هذا اللعين (مخلد بن كيداد)(*), إذ يلتجأ في خطبته إلى التوظيف الاشاري للقرآن الكريم في قوله(والنفس التي هي بالسوء أمارة) كوسائل إقناعية حيث وردت في القرن الكريم في قوله تعالى(وما أبرئُ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم)[25], اي أن الخليفة الفاطمي يحث جنوده على القتال والحرب ضد الصراعات الخارجية التي تعرضت لها الدولة الفاطمية وخاصة(أبي يزيد الدجال) لأن نفسه اتجهت و دفعته إلى فعل بالسوء والجري وراء مغريات الشيطان, كان واقفاً ضد الدولة الفاطمية واتباعها فهو بذلك يستحق الذم, واللعن عندما ينعته الخليفة في خطبته (أن هذا اللعين النكاري) علاوة على القتل في الدنيا, وله في الآخرة عذاب النار بما قدمت يداه, فتكون خطبته موجة للآخر المعادي للدولة الفاطمية, وأن الخليفة استحضاره لوسيلة الإقناع (الآية القرآنية) إذ رسمت وحددت مصيره وهو النار التي لا يدخلها إلاَّ الأشقى وترغيب الناس وحثهم على محاربته, وإقناعهم وتذكيرهم بأفعاله العدائية ضد الخلافة الفاطمية الشرعية المسددة من السماء, وأن الصراع مع أبي يزيد بن كيداد كان من أخطر الصراعات التي واجهت الدولة الفاطمية وهددتها, من

حيث قوة نفوذه, وكثرة أنصاره وصار له اتباع يعظمونه ويعلون من شأنه, ومن ابرز سماته أنه كان يستبيح لأصحابه الدماء واخذ الأموال, ويتعلى ويخرج عن السلطان ويكفر في أهل الاسلام كان ذلك في أيام الخليفة المهدي لكن ازداد نفوذه في أيام القائم بأمر الله [26].

ولوسيلة الإقناع القرآنية هذه اهمية بالغة في عملية إيصال الخطاب النثري ما بين المبدع والجمهور المتلقي ولم تقتصر على هذه الوظيفة الإيصالية فقط بل دورها المهم هو التأثير والإقناع بما يوافق ويناسب الغرض الذي نظمت من اجله الخطبة وهو مناصرة الخلفاء الفاطميين والحث على مقاتلة اعدائهم المارقين الكفرة وقد حملت وسيلة الإقناع تلك دلالة مغايرة يريد الخليفة الفاطمي أسقاطها على اعدائه وكل من يقف ضد دولته الفاطمية.

ويستمر الخليفة القائم في خطبته لكن بأسلوب مغاير اذ عمد ايضا إلى (الاسلوب الاشاري) عن طريق التوظيف المعنوي للنصوص القرآنية داخل خطبته في قوله "... ونزل بإزائكم دجّال لعين في شرذمة ضالّة مضلة لم يستضيئوا بنور هداية فهم كالأنعام المجفلة, والصور الممثَّلة, والخشب المُسندة, والحُمُر المستنفرة, أن أقاموا هلكوا, وإن طولبوا أدركوا وأنتم حزب الله وهم حزب الشيطان, وقتيلكم في الجنة, وقتيلهم في النار, فأيّ حق بعد هذا الحق تطلبون, ومع أيّ إمام بعد إمامكم تقاتلون؟[27].

أن الخليفة لم يشر إلى اقتباس وسيلته الإقناعية بصورة مباشرة وبشكل صريح بل جاء توظيفه لهذه الوسيلة بشكل إشاري وأن هذا الضرب "نثر الآي القرآني في غضون الكلام قد استحسنه الكثير من الادباء والبلغاء فيرى أبن الاثير هو أحسن الوجهين عندي, وذلك أنه لا تؤخذ الآية بكمالها, بل يؤخذ جزء منها ويجعل أولاً لكلامٍ أو أخرٍ"[28].

نجد ان الخلفاء الفاطميين "عمدوا إلى نثر الآي القرآني في خطبهم دون النص عليها بعلامة تنصيص أو استباقها بما يفيد نسبتها إلى الله تعالى؛ وذلك حرصاً منهم على أن تأتي الخطبة مسترسلة دون قطع, إمعاناً في تأثيرها في نفوس السامعين دون تشتيت أو تفريق"[29].

نلحظ ان الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله في خطبته يلمح بالإشارات لوسائل إقناع(الآيات القرآنية), إذ أفاد الخليفة منها ليبين حال الكافرين وصفاتهم الذين انقلبوا على مبادئ الدولة الفاطمية وأساؤوا إليها بأعمالهم, فقول الخليفة:(كالأنعام المجفلة) قد أشار إلى قول الله (ﷻ) في محكم كتابه ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[30]. وايضا قوله :(الخشب المُسندة) حيث وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[31].

كما اشار في خطبته بقوله:(الحمر المستنفرة) إلى قوله تعالى "كأنَّهم حُمُرٌ مُستنفرة"[32]. ثم أن الخليفة القائم بأمر الله يفرق بين حزبه وهو الغالب المنتصر حتماً لأن ينزع إلى طاعة وأمر الله ورسوله في ظاهرهم وباطنهم , وحزب الشيطان(مخلد أبي يزيد وأتباعه) وهو الخاسر دائما بقوله: (وأنتم حزب الله وهو حزب الشيطان). وهنا ايضا يعمد إلى الاشارة لوسيلة الإقناع في قوله تعالى:﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [33]. أما اتباع الشيطان واحزابهم ففي قوله تعالى :﴿ ألاَ إنَّ حزب الشيطان هم الخاسرون﴾[34].

هنا الخليفة الفاطمي استدعى كثيراً من الوسائل الإقناعية, لكن بصورة غير مباشرة , ولجأ إلى صياغتها من جديد حتى تتشاكل مع مضمون خطبته وتتناسب مع معطيات نصه مكونة حلةً وبناءً فنياً جديداً لنصة النثري, فدلالة وسائل الإقناع هو اعطاء وادراك رؤية واضحة للمتلقي وإقناعه بهذه الصفات التي ذكرها الخليفة في خطبته فهي تطابق بلا شك هؤلاء الكفرة الخارجين عن الدولة الفاطمية ,فيزداد قوةً في مجابهة الخصوم ومحاربتهم, والدفاع عن الدولة الفاطمية وخلفائها, وايضا يحقق الخليفة موقفاً حاسماً مع خصومة واعدائه, فأن هذه المضامين القرآنية بوعدها ووعيدها راعت مصلحة الإمامة الفاطمية ونفعتها معتمدةً على مبدأ الإمامة في قول الخليفة القائم بأمر الله (ومع أي إمام بعد إمامكم تقاتلون)[35].

ويختم الخليفة خطبته قائلاً: " فقاتلوا, رحمكم الله, أحزاب الضلال, وذئاب الطمع, وفراش النار, واطلبوهم في نواحي الأرض وأقاصي البلدان, وجميع الآفاق, حتى يحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون"[36].

ففي هذه الخطبة يدعو الخليفة في نهاية خطبته اتباعه من أهل كتامة, إلى الجهاد, وقتال أحزاب الكفر والضلال و محاربة هذا العدو اللعين الدجال, إذ وظف ايضا وسيلة إقناع بشكل إشاري في قوله تعالى:﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾[37]. حتى يظهر الحق وتعلو رايته, ويهلك الكفر ويمحو آثره .

وبقراءة النص اعلاه قراءة فاحصة نجد أن للتوظيف المعنوي دور واضح في نقل معنى النص الكريم إلى المنجز الخطابي في محاولة منه إلى ترسيم الغاية الدلالية والبنائية في نصه وكان الهدف الابلغ هو التركيز وشد الانتباه على ما يريد قوله من جهة ومن جهة أخرى تحشيد للبناء التعبيري والقولي لدى الخليفة زد على ذلك اعطاء النص قوة وجمال ورصانة أسلوب وتقريب المعنى وابرازه, فأن في هذا التوظيف" تظهر قدرة المبدع وإبداعه في التعامل مع النص القرآني, وفي إقامة علاقات تناصية ينتج عنها نصاً جديداً يستقي مرجعيته الثقافية من النص السابق (القرآني), ويسهم في تغيير الحاضر والواقع المعيش في ضوء دلالة النص القديم ومعناه"[38].

خطبة المهدي بالله:

ومن توظيفات وسائل الإقناع القرآنية ما جاء في كتابٍ كتبه أمير المؤمنين (المهدي بالله)(*). وأمر بقراءته على منبر القيروان ووجّه نسخته إلى البلدان, وهذه نسخته : بسم الله الرحمن الرحيم

" أما بعد, فالحمد لله الذي رفع عمد الحقَّ وأعزَّ أهله, ونكس الباطل وأذلّ حزبه, القادر فلا يعارض في قدرته, والعزيز فلا يغالب في أمره.. , الناصر لدينه الذي رضيه لنفسه, وشرفه بأكرم أنبيائه عليه وأعلاهم درجة عنده وأشرفهم منزلة وأقربهم وسيلة لديه, محمد(ﷺ), حامل حكمته, مستودع غيبه وما يكون من بعده من كيد الكائدين, إلى اهل بيته الذين سبق لهم وعده فيهم بالنصر والتأييد, والعز والتمكين, كما قال تعالى في كتابه المبين ﴿لا يأتيهِ

الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ﴾ ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون, وأن في هذا لبلاغا لقوم عابدين﴾"[39]

أن الخليفة المهدي بالله الفاطمي في هذه الخطبة يوضح موقفه وسياسته في التعامل والتوجيه, والاصلاح, والإنصاف بين أفراد الرعية, فيحمد الله الذي أعلى راية الحق ونصرها, وأذل حزب الباطل وادحضه فهو القادر والعزير الذي لا تعارض ارادته وقدرته, ويصلي على النبي محمد(ﷺ) ووصفه بأنه أكرم الأنبياء والذي شرفة بالمنزلة الرفيعة, والكرامة العالية وان اقتداء الخليفة بالرسول محمد (ﷺ) واتخاذه قدوةً, ومثالاً في اتباع سياسته, واحكامه, وعدله بين المسلمين كافه, وأن الخليفة المهدي بالله في هذه الخطبة يحتج لأحقية ال البيت بإرث الرسول محمد صلى الله عليه واله وسلم, الذين ايدهم الله بالغلبة, والنصر, والتمكين, والعلو على اعدائهم , وأن وسائل الإقناع التي اتضحت في النص أراد الخليفة من خلالها التأثير في الرعية, وإقناعهم بأن الخلافة والإمامة من بعد الرسول محمد إلى أهل بيته الطيبين الطاهرين, وتعد قضية الإمامة في خطب الأئمة الفاطميين" لها الحظوة والسبق بين جُل المضامين الدينية الأخرى؛ فهي الوسيلة والغاية والهدف, فكل شيء يدور حول الإمام وتقديسه, فالله لم يخلق الخلق ويعمر الرسل والأنبياء والشرائع إلا لإتمام دور الإمام"[40], وان هذه الخلافة لا تتغير ولا يتولاها إلا لمن يستحقها فأن اهل البيت عليهم السلام هم أولى من بعد الرسول محمد باستحقاقها, الوسيلة الإقناعية الاولى أراد أن يشبه منزلة اهل البيت عليهم السلام بمنزلة القرآن الكريم في حصانته, فهو لا يشوبه اي نقص أو تدنيس كيف هذا فهو القائل بحقه ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون﴾[41], فها هنا أراد ان يقيم علاقة تعالقية بين أهل البيت عليهم السلام والقرآن الكريم من حيث المكانة إذ إنهما عدلان لا يستغني احدهما عن الآخر.

ويؤكد الخليفة لرعيته على اثبات احقيتهم بالخلافة فيورد وسيلة إقناعية أخرى قد وجد فيها حاجته الملحة ليعمق في نفوسهم بأنه أهل البيت لهم كل الحق في الخلافة من بعد الرسول الكريم في قوله تعالى:﴿ولقد كتبنا الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون﴾.

ولا يزال الخليفة مستمر في مظان خطابه على احقية اهل البيت عليهم السلام بالوارثة للحكم, عبر وسائل إقناعية أراد بها ان يُلزم المتلقي بذلك عن طريق قرائن دلالية استمدها من القرآن الكريم, وعبر هذه الوسيلة الإقناعية يستمد موقف الخليفة تأكيده واصراره على احقيتهم عن طريق ميله إلى استخدام قوله تعالى (الصالحون) ان هذه الدرجة أعني الصلاح درجة لا يستحقها إلا القلة من عباد الله واوليائه فهي وسام من الاوسمة الالهية التي يمكن ان تمنح ال البيت عليهم السلام دون سواهم وهنا استطاع وعبر هذه الوسيلة ان يحقق ما يصبو إليه دلاليا.

ويختم الخليفة نصه النثري بوسيلة إقناعية أخرى في قوله "فما يحاول أمير المؤمنين عسيراً, والحمد الله إلا يسره الله, ولا صعباً إلا ذلّله, ولا وعراً إلا سهله, فأصبحت الكلمة به مجتمعة, والألفة متصلة, والدهماء ساكنة, وقواصي الارض آمنة, ووليه ممنوعاً, وعدوه ذليلاً مقموعاً, وكل من قدح بزنده, وأحطب في حبله, فمحكوم له بالنصر ومقضي له بالظفر, وكل من نكب عنه وخان أمانته ونقض عهده, وخفر ذمته, فقد باء بغضب من الله في الخلاف عليه, فكل من أوقد عليه الحرب أحرقته بنارها وكلمته بأظفارها, وكل من تمسك بطاعته فقد تمسك بالعروة الوثقى وفاز في الآخرة والأولى, وكل من التمس وليجة غيرها, فقد ﴿خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ "[42]

يرسي الخليفة الفاطمي في خطبته العلاقة التي تربط ما بينه وبين رعيته, وعلى رأسها الطاعة والولاء للخليفة, ثم يتجه إليهم بالتوجيه والوعيد والنصح, ويشير إلى مصير كل من يخالف طاعته وأوقد نار الحرب عليهم وخان عهده وأمانته بأن مصيره الهلاك, والخسران المبين في الدنيا فضلا عن الاهانة والنبذ من قبل الخليفة أما في الآخرة قد استحق نصيبه من عذاب الله, فيتضح في نصه موقفه من الخارجين عن طاعته والمخالفين لأوامره, أما المتمسكين بطاعته فقد ابصروا بنور الهداية واعتصموا بالعروة الوثقى اي استقاموا على الدين القويم الذي لا انفصام له.

نجد ان الخليفة يدعو اتباعه إلى مؤازرته والامتثال للأوامر التي يصدرها ووجوب الطاعة والولاء للدولة الفاطمية, وسيلة الإقناع التي استشهد بها ووضحت عاقبة كل من يخرج عن

اوامر خليفته, على افراد الرعية ان يأخذوا العبرة والموعظة من الذين سبقوهم حتى لو يذهبوا بأنفسهم إلى التهلكة والضياع نلحظ ان وسيلته الإقناعية لوحت إلى التهديد والوعيد, وقد امتزجت في هذه الخطبة الصبغة السياسية مع الصبغة الدينية من خلال مواقفه وسياسته المتبعة مع الناس وايضا يدعو إلى التمسك بنهج الدولة الفاطمية والولاء لها, أما إيراده لوسائل الإقناع في كل الخطبة ليستدعي من خلالها توفير عنصري الإقناع والتأثير.

ابرز النتائج التي توصل إليها البحث:

1- لم تقتصر الخطابة على عصر معين بل امتدت منذ عصر ما قبل الاسلام إلى يومنا هذا؛ لما تمتلكه من وظيفة اقناعية فاقت الشعر في بعض الاحيان واخذت دور السلاح في احايين أُخر.

2- اخذت الخطابة بالتطور شأنها شأن بقية الفنون النثرية فبدأت اقوالا وجيزة, وعبارات مسجوعة تناسب حاجاتهم الفكرية, وقد أضاف العصر الاسلامي غزارة المواضيع بسبب احداث الدين الجديد.

3- تأثرت خطب العصر الاموي بالفتن والقبليات العصبية التي شاعت في هذا العصر, اما في العصر العباسي فقد برز خطباء لهم مكانتهم في الادب العربي امتازوا ببراعة القول والفصاحة والقدرة على الإقناع والتأثير واستمالة القلوب واعتنوا بشكلها ومضمونها.

4- اكثر الخلفاء الفاطميين من توظيف القران الكريم لما له من مقدرة كبيرة على استمالة القلوب علاوة على مكانته المقدسة في ذواتهم.

5- تركز نشاط الخطب وتأثيرها في هذا العصر في أرجاء المساجد الاسلامية التي كانت مقراً للعلماء والادباء وعلماء التفسير والحديث بعدها مؤسسة تعليمية.

6- تنوعت طرق التوظيف فقد وظف الخلفاء بأسلوبين: الأول (التوظيف المباشر) من خلال اقتباس اية بعينها, والثاني والتوظيف غير المباشر (الاشاري) عن طريق اخذ معنى الآية أو قصتها أو دلالتها.

الهوامش

[1] _ النثر الفني وأثر الجاحظ فيه : عبد الحكيم بلبع :34.

[2] _ ينظر: صبح الاعشى في صناعة الإنشا: أبو العباس القلقشندي : ج1 | 210.

[3] _ ينظر: فن الخطابة :أحمد محمد الحوفي :202_203.

[4] _ الخطابة :نِقولا فياض :121.

[5] _ البيان والتبين :ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ :ج4 | 52.

[6] _ ينظر: الاهداف السياسية لخطب الخلفاء في العصر العباسي الثاني _دراسة تاريخية_: أسماء عبد عون , لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية | العدد 22 | سنة 2016, 115.

[7] _ الحياة الادبية في عصر صدر الاسلام 12ق_41 : محمد عبد المنعم خفاجي , 118.

[8] _ الفن ومذاهبه في النثر العربي :شوقي ضيف :52.

[9] _ ينظر : الفن ومذاهبة في النثر العربي: 53.

[10] _ فن الخطابة وتطوره في الادب العربي : ايليا حاوي ,59.

[11] _ ينظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي :67.

[12] _ينظر: تاريخ الادب العربي (العصر العباسي):شوقي ضيف :ج1 | 448.

[13] _ ينظر :الخطابة العربية في العصر العباسي الأول(دراسة موضوعية_ فنية), حسين عبد العالي اللهيبي , مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية | العددان (3_4) المجلد (7)سنة(2008م) : 95

[14] _النثر الفني وأثر الجاحظ فيه : 143 .

[15] _ ينظر: الفنون النثرية في أدب مصر الفاطمية (دراسة موضوعية_ فنية):سامح السعيد علي داود, جامعة الإسكندرية, كلية الآداب, رسالة ماجستير, 2009: 250.

[16] _ ينظر: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريه وبلاد العرب: حسن ابراهيم حسن :373.

[17] _ ينظر: الحياة العلمية في إفريقية, المغرب الأدنى منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري : يوسف أحمد حواله:181_182.

[18] _ ينظر: التشيع المصري : حسن محمد صالح | ج 5| 8.

[19] _ نهاية الأرب في فنون الادب: شهاب الدين النويري:ج15 | 191.

[20] _ تاريخ الادب العربي في العصر الاسلامي : شوقي ضيف , 30.

[21] _ ينظر : الاقتباس من القرآن الكريم : لابي منصور عبد الملك الثعالبي ,ج1 | 27.

* _ المنصور بالله الفاطمي: هو ابو الطاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله بن المهدي العبيدي الباطني صاحب المغرب ولد بالمهدية وتولى الحكم بعد أبيه وكان له من العمر اثنتان وثلاثون سنة, وكان بليغاً خطيباً فصيحاً. ينظر: سير أعلام النبلاء, الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي,ج15 | 156.

[22] _ تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب(القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار): الداعي إدريس عماد الدين:428.

[23] _ تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب (القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار):429.

* _ القائم بأمر الله: هو أبو قاسم محمد بن المهدي بالله ولد بسليمة دخل المغرب مع أبيه وبُويعَ بعد موت أبيه في سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة, وكان مهيباً شجاعاً, قليل الخير, فاسد العقيدة, ينظر: سير أعلام النبلاء: 15 | 152, واتعاظ الحنفا: ج1 | 74.

[24] _ تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب(القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار):311.

* _ مخلد بن كيداد عُرف باسم أبي يزيد من قبائل زناته يُكنى بصاحب الحمار؛ لأنه كان يتنقل بين المدن والقرى ناشراً دعوته العدائية للفاطميين راكباً حماراً وكان قصيراً أعرج وكان قبيح الصورة , العبر وديوان المتبدأ والخبر: عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون | ج4 | 84_85.

[25] _ (يوسف, 53).

[26] _ ينظر : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا: تقي الدين المقريزي:ج1 | 75.

[27] _تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب (القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار):311_312.

[28] _ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله المعروف أبن الاثير :ج3 | 200.

[29] _ الفنون النثرية في أدب مصر الفاطمية (دراسة موضوعية وفنية): سامح السعيد علي, جامعة الإسكندرية, كلية الآداب, رسالة ماجستير, 2009: 287.

[30] _ (الفرقان, 44).

[31] _(المنافقون, 4).

[32] _ (المدثر, 50).

[33] _ (المائدة, 56).

[34] _ (المجادلة, 19).

[35] _ ينظر: المرجعيات الثقافية في النثر الفاطمي: محسن علي العرباوي, جامعة كربلاء, كلية التربية, أطروحة دكتوراه, 2019: 75.

[36] _ تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب(القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار):312.

[37] _ (الأنفال, 8).

[38] _ المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الاندلسي في عصري الطوائف والمرابطين: حسين مجيد رستم الحصونة, 54.

[*] _ المهدي بالله هو أبو محمد عبد الله بن الحسين بن أحمد بن اسماعيل, مؤسس الدولة الفاطمية, ولد في مدينة عسكر مكرم من خوزستان, ثم أن والده انتقل به إلى سليمة, وفيها كان منشؤه , وتوفي أبي الإمام المهدي عليهما أسنى السلام , وتكفله عمه (أبا علي الحكيم, المكنى سعيد الخير) , وكان عمره ثماني سنين , وتزوج المهدي بأبنه عمه وولدت له أبنه الإمام القائم بأمر الله ؛ ينظر: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب (القسم الخاص من كتاب عيون الاخبار): 143_144.

[39] _ تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب (القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار): 171_172.

[40] _ مصادر الفكر الباطني عند الإسماعيلية وآثاره (دراسة تحليلية نقدية), سمران نشمى, أطروحة دكتوراه, جامعة القاهرة, 2005: 80.

[41] _ (الحجر, 9).

[42] _ تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب(القسم الخاص من كتاب عيون الاخبار):172_173.

Refrences

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا: تقي الدين المقريزي, تح: جمال الدين الشيال , دون دار نشر, القاهرة ,ط2, 1996م.
- الاقتباس من القرآن الكريم : لابي منصور عبد الملك الثعالبي ,ج1, تح: ابتسام الصفار, دار الوفاء للطباعة والنشر, ط1, 1992م
- الاهداف السياسية لخطب الخلفاء في العصر العباسي الثاني _دراسة تاريخية_: أسماء عبد عون , لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية | العدد 22 | سنة 2016م.
- البيان والتبين :ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ :ج4, تح: عبد السلام هارون, مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر, القاهرة ط2, 1960م .
- تاريخ الادب العربي (العصر العباسي):شوقي ضيف, دار المعارف , مصر.
- تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب(القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار): الداعي إدريس عماد الدين, تح: محمد اليعلاوي, دار الغرب الاسلامي, بيروت – لبنان , (دون طبعة و سنة)
- تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريه وبلاد العرب: حسن ابراهيم حسن, مكتبة النهضة المصرية, القاهرة , 1964م
- التشيع المصري : حسن محمد صالح , دار الجمان – بيروت , 2003م
- حوليات مصر السياسية , احمد شفيق باشا, تح: احمد زكريا الشلق, الهيئة المصرية العامة للكتاب , سلسلة تراث النهضة
- الحياة الادبية في عصر صدر الاسلام ,محمد عبد المنعم خفاجي, دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر, ط3

- الحياة العلمية في إفريقية, المغرب الأدنى منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري : يوسف أحمد حواله, جامعة ام القرى مكة المكرمة ط1, 2000م
- الخطابة , نِقولا فياض , دار الهلال مصر, 1930م
- الخطابة العربية في العصر العباسي الأول(دراسة موضوعية_ فنية), حسين عبد العالي اللهيبي , مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية | العددان (3_4) المجلد (7)سنة(2008م)
- سير أعلام النبلاء, الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي, مؤسسة الرسالة بيوت لبنان , ط1 , 1985م
- صبح الاعشى في صناعة الإنشا: أبو العباس القلقشندي, دار الكتب المصرية القاهرة , 1922م
- العبر وديوان المتبدأ والخبر: عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون , بيت الافكار, 1983م
- فن الخطابة :أحمد محمد الحوفي, مطبعة الرسالة القاهرة , ط3,
- فن الخطابة وتطوره في الادب العربي : ايليا حاوي, منشورات دار الشرق الجديد, 1961م .
- الفن ومذاهبه في النثر العربي :شوقي ضيف , دار المعارف مصر, ط10
- الفنون النثرية في أدب مصر الفاطمية (دراسة موضوعية وفنية): سامح السعيد علي, جامعة الإسكندرية, كلية الآداب, رسالة ماجستير, 2009م
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله المعروف أبن الاثير, مطبعة نهضة مصر القاهرة, ط1 , 1959م
- المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الاندلسي في عصري الطوائف والمرابطين, حسين مجيد رستم الحصونة, مؤسسة دار الاسلام , ط1, 2014م
- المرجعيات الثقافية في النثر الفاطمي : محسن علي العرباوي, جامعة كربلاء, كلية التربية, أطروحة دكتوراه, 2019م

- مصادر الفكر الباطني عند الإسماعيلية وآثاره (دراسة تحليلية نقدية), سمران نشمى, أطروحة دكتوراه, جامعة القاهرة, 2005م
- النثر الفني وأثر الجاحظ فيه : عبد الحكيم بلبع, مكتبة الانجو المصرية, دار العلوم. جامعة القاهرة.
- نهاية الأرب في فنون الادب: شهاب الدين النويري, دار الكتب العلمية , ط1, 2004م